

جماليات السرد التاريخي في رواية المسيح الأندلسي لتيسير خلف

الدكتور يحيى معروف

أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمشاه.

حيدر بدر سعدون العزاوي

طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمشاه.

"The Aesthetics of Historical Narrative in Taysir Khalaf's Novel 'The Andalusian Messiah'"

Dr. Yahya Marouf

yahyamaarouf@gmail.com

Professor, Department of Arabic Language and Literature, Razi University, Kermanshah. □

Haidar Bader Al-Azzawi

Ibrahim1999ru@gmail.com

PhD Candidate, Department of Arabic Language and Literature, Razi University, Kermanshah.

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى استجلاء جماليات السرد التاريخي في رواية "المسيح الأندلسي" للروائي السوري تيسير خلف، وذلك من خلال رصد الأدوات الفنية والسردية التي وظفها الكاتب في إعادة تشكيل التاريخ الأندلسي روئياً، وتحليل البنى الجمالية التي تحكم نسيج النص وتمنحه خصوصيته الفنية. وتتعلق الدراسة من إشكالية محورية مفادها: كيف استطاع تيسير خلف أن يحول الموروث التاريخي الأندلسي إلى فضاء سردي جمالي يتجاوز حدود التوثيق ليلبغ آفاق التخيل الإبداعي؟ وتعتمد الدراسة المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على استقراء النص الروائي ورصد ظواهره السردية وتحليل أبعادها الجمالية والدلالية، مستعينة بمفاهيم السرديات الحديثة وما أسهمت به نظرية الرواية التاريخية من أدوات إجرائية دقيقة. وتتوزع الدراسة على مبحثين رئيسيين، يُعنى أولهما بجماليات البنية السردية من خلال تحليل بنية الزمن واستراتيجيات الاسترجاع التاريخي، وجماليات المكان الأندلسي بوصفه فضاءً دلاليًا حاملاً لأبعاد هوياتية وحضارية، ثم الشخصية التاريخية وما تخضع له من إعادة صياغة وتحويل روائي. فيما يتناول المبحث الثاني آليات توظيف التاريخ بين التوثيق والتخيل، مستكشفاً مستويات الحضور التاريخي في النص، وكيفية ملء الفراغات التاريخية بالخيال السردية، وصولاً إلى الكشف عن وظيفة التاريخ الأندلسي بوصفه مرآة نقدية للواقع العربي الراهن وأسئلته الوجودية الكبرى. وتخلص الدراسة إلى أن تيسير خلف يُقدّم في هذه الرواية نموذجاً ناضجاً للرواية التاريخية العربية الحديثة، يقوم على التوتر الخلاق بين أمانة الوثيقة وحرية الخيال، وأن جمالية سرده تنبثق من قدرته على جعل الأندلس حاضرة في وجدان القارئ العربي شاهدة على جراحه وأسئلته التي لم تنته.

الكلمات المفتاحية: جماليات السرد، الرواية التاريخية، تيسير خلف، الأندلس، التخيل التاريخي، البنية السردية.

Abstract:

This study seeks to explore the aesthetics of historical narrative in the novel The Andalusian Christ by the Syrian novelist Tayseer Khalaf, by examining the artistic and narrative techniques employed by the author in his fictional reconstruction of Andalusian history, and by analyzing the aesthetic structures that govern the fabric of the text and define its literary distinctiveness. The study proceeds from a central problematic: how did Tayseer Khalaf succeed in transforming the Andalusian historical heritage into an aesthetic narrative space that transcends the

boundaries of documentation to reach the horizons of creative imagination? The study adopts a descriptive-analytical methodology based on a close reading of the novel, identifying its narrative phenomena and analyzing their aesthetic and semantic dimensions, drawing on the concepts of modern narratology and the theoretical frameworks of the historical novel. The study is organized around two main chapters: the first examines the aesthetics of narrative structure through an analysis of temporal construction and strategies of historical retrospection, the aesthetics of Andalusian space as a semantic dimension laden with identity and civilizational significance, and the historical character as subject to novelistic transformation and reformulation. The second chapter addresses the mechanisms of employing history between documentation and fictionalization, exploring the levels of historical presence in the text, the filling of historical gaps through narrative imagination, and the function of Andalusian history as a critical mirror reflecting the contemporary Arab reality and its profound existential questions. The study concludes that Tayseer Khalaf presents in this novel a mature model of the modern Arabic historical novel, built upon the creative tension between fidelity to the historical document and the freedom of literary imagination, and that the aesthetics of his narrative arise from his capacity to render Andalusia present in the Arab reader's consciousness as a witness to unresolved wounds and enduring questions. **Keywords:** Narrative Aesthetics, Historical Novel, Tayseer Khalaf, Andalusia, Historical Fictionalization, Narrative Structure.

مشكلة الدراسة:

تتطلب هذه الدراسة من تساؤل جوهري مفاده: كيف وظّف الروائي السوري تيسير خلف في روايته "المسيح الأندلسي" الموروث التاريخي الأندلسي أداة للبناء السردى الجمالي، وما الكيفية التي استطاع بها أن يُحوّل هذا التاريخ من مادة توثيقية جامدة إلى فضاء روائي حيّ يتنفس بروح الإبداع ويحمل في طياته أسئلة الحاضر وإشكالياته؟

وتتفرّع عن هذا التساؤل المحوري جملة من الأسئلة الفرعية التي تُحدّد مسارات البحث وتُضيء جوانبه، أبرزها:

- ١- ما الأنماط الجمالية التي تتجلى في البنية السردية للرواية من حيث توظيف الزمن والمكان والشخصية التاريخية؟
 - ٢- كيف أعاد تيسير خلف صياغة الشخصيات التاريخية الأندلسية وتحويلها من كيانات موثقة في السجلات إلى شخصيات روائية تحمل أبعاداً نفسية وإنسانية متكاملة؟
 - ٣- ما الآليات الفنية التي اعتمدها الكاتب في التوفيق بين متطلبات الأمانة التاريخية ومقتضيات الخيال الروائي؟
 - ٤- إلى أي حدّ يُشكّل التاريخ الأندلسي في الرواية مرجعية نقدية للواقع العربي الراهن، وما الدلالات الفكرية والإنسانية التي يستحضرها هذا التوظيف؟
 - ٥- ما الخصائص الأسلوبية واللغوية التي تمنح الخطاب السردى في الرواية طابعه الجمالي المميز؟
- وتستمدّ هذه الإشكالية مسوّغاتها من أن الرواية التاريخية العربية لا تزال بحاجة إلى دراسات نقدية معمّقة تتجاوز مستوى الرصد والوصف إلى مستوى التحليل الجمالي الذي يكشف عن الكيفية التي يُنتج بها النص التاريخي جماليته الخاصة، ولا سيما حين يتعلق الأمر بتجربة إبداعية بارزة كتجربة تيسير خلف الذي جعل من الأندلس فضاءً للتأمل والمساءلة لا مجرد ديكور تاريخي.

أهمية هذه الدراسة:

تستمدّ هذه الدراسة أهميتها من جملة اعتبارات متشابكة تمسّ الجانب الأدبي والفكري والمنهجي معاً:

أولاً: على الصعيد الأدبي

تتناول الدراسة رواية "المسيح الأندلسي" بوصفها نموذجاً سردياً متميزاً في مدوّنة الرواية التاريخية العربية المعاصرة، إذ تجمع بين عمق التجربة التاريخية وجرأة التخيل الروائي، مما يجعلها مادة خصبة للدراسة النقدية الجادة. فضلاً عن أن تيسير خلف يمثل صوتاً روائياً سورياً بارزاً لم يحظَ باهتمام نقدي يتناسب مع قيمة منجزه الإبداعي، وهو ما يجعل هذه الدراسة إسهاماً في سدّ هذه الفجوة النقدية.

ثانياً: على صعيد الموضوع

يُعَدّ التاريخ الأندلسي من أكثر المراجعيات التاريخية حضوراً في الوجدان العربي وأشدها إثارةً للأسئلة الوجودية المتعلقة بالهوية والانتماء والسقوط الحضاري، ومن ثمّ فإن دراسة توظيفه في سياق روائي جمالي تُسهم في الكشف عن الكيفية التي يستعيد بها الأدب التاريخ ويُعيد إنتاجه بما يخدم الوعي الثقافي المعاصر.

ثالثاً: على الصعيد المنهجي

تُقدّم الدراسة نموذجاً تطبيقياً للتحليل الجمالي السردى في دراسة الرواية التاريخية العربية، مستعينةً بأدوات السرديات الحديثة ومفاهيم نظرية الرواية التاريخية، مما يُثري حقل الدراسات الأدبية النقدية المعنية بهذا الجنس الروائي ويُقدّم أدوات إجرائية يمكن توظيفها في دراسات مماثلة.

رابعاً: على صعيد الدراسات الأندلسية

تُسهم الدراسة في إثراء الاهتمام الأدبي والنقدي بالموضوع الأندلسي في الرواية العربية المعاصرة، وتفتح آفاقاً للباحثين في استكشاف العلاقة بين الذاكرة التاريخية الجمعية والإبداع الروائي عند الكتّاب العرب.

أهداف البحث:

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف المتكاملة، أبرزها:

١. الكشف عن جماليات البنية السردية في رواية "المسيح الأندلسي" من خلال تحليل تقنيات الزمن والمكان والشخصية وما تتطوي عليه من أبعاد جمالية ودلالية.

٢. رصد آليات توظيف التاريخ الأندلسي في النص الروائي، وتحديد مستويات العلاقة بين الوثيقة التاريخية والخيال السردى.

٣. تحليل الكيفية التي أعاد بها تيسير خلف تشكيل الشخصيات التاريخية وتحويلها من كيانات موثقة إلى شخصيات روائية ذات أبعاد إنسانية ونفسية متكاملة.

٤. استجلاء الوظيفة الفكرية للتاريخ الأندلسي في الرواية بوصفه مرجعيةً نقدية تُضيء أسئلة الهوية والانتماء والسقوط الحضاري في الواقع العربي الراهن.

٥. الكشف عن الخصائص الأسلوبية واللغوية التي تمنح الخطاب السردى في الرواية طابعه الجمالي المميز وتُفرّقه عن السرد التاريخي المحض.

٦. تقديم قراءة نقدية تُسهم في تعميق الفهم الأكاديمي لتجربة تيسير خلف الروائية، وتفتح الباب أمام دراسات مستقبلية تتناول الرواية التاريخية العربية من منظورات جمالية متجددة.

منهج البحث

يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي بوصفه المنهج الأنسب لطبيعة الموضوع وأهدافه، إذ يقوم في شقّه الوصفي على رصد الظواهر السردية والجمالية في رواية "المسيح الأندلسي" ووصفها وصفاً دقيقاً موضوعياً يستند إلى النص مباشرة، ويقوم في شقّه التحليلي على تفكيك هذه الظواهر واستجلاء أبعادها الجمالية والدلالية والفكرية في ضوء المرجعيات النظرية المعتمدة. وقد استدعت طبيعة الموضوع الاستعانة بجملة من المناهج والمقاربات النقدية المساعدة التي تتكامل مع المنهج الوصفي التحليلي ولا تتعارض معه، أبرزها:

أولاً: المقاربة السردية

تُشكّل السرديات الحديثة الركيزة النظرية الأساسية في هذا البحث، إذ يستعين الباحث بمفاهيمها الإجرائية في تحليل بنية الزمن السردى من استرجاع واستباق وتوازٍ زمني، وتحليل المكان بوصفه فضاءً دلاليّاً لا مجرد خلفية للأحداث، فضلاً عن تحليل الشخصية من حيث أبعادها ووظائفها السردية. ويستند البحث في هذا الإطار إلى مفاهيم جيرار جينيت في تحليل الزمن السردى، ومفاهيم غريماس في تحليل الشخصية الروائية.

ثانياً: مقارنة الرواية التاريخية

يستند البحث إلى الإطار النظري الخاص بجنس الرواية التاريخية كما أرسى قواعده جورج لوكاتش في كتابه "الرواية التاريخية"، وما أضافه النقد العربي المعاصر من تطورات على هذا المفهوم، وذلك بهدف تحديد طبيعة العلاقة بين التاريخ والتخييل في النص، ورصد الآليات التي يلجأ إليها الروائي في إعادة تشكيل المادة التاريخية.

ثالثاً: المقاربة الأسلوبية

تُوظّف الأسلوبية أداةً لتحليل الخصائص اللغوية والبلاغية للخطاب السردى في الرواية، من حيث طبيعة اللغة المستخدمة وأنماط الصورة الفنية وطرائق بناء الجملة السردية، بما يكشف عن الجمالية اللغوية التي يُنتجها النص ويُميزها عن غيرها من النصوص الروائية. وقد استدعى تطبيق هذه المناهج اعتماداً جملة من الإجراءات المنهجية المتكاملة، أبرزها: الاستقراء النصي الدقيق للرواية واستخلاص الشواهد الدالة، وتصنيف هذه الشواهد وفق المحاور التحليلية للبحث، ثم تحليلها في ضوء المرجعيات النظرية المعتمدة، وصولاً إلى استنتاجات تُجيب عن أسئلة البحث وتُحقق أهدافه. ويحرص البحث طوال مساره على التوازن بين الاستناد إلى النص الروائي بوصفه المرجع الأول والأساس، وبين توظيف الأطر النظرية بوصفها أدوات لفهم والتحليل لا غاية في حدّ ذاتها.

يُعدّ تيسير أحمد خلف من أبرز الأصوات الروائية العربية المعاصرة التي نجحت في الجمع بين الإبداع الأدبي والبحث التاريخي المعمق، وهو روائي وناقد وباحث سوري فلسطيني من مواليد القنيطرة عام ١٩٦٧. درس الإعلام في جامعة دمشق وتخرّج منها عام ١٩٩٣، ليبدأ بعدها مسيرة إبداعية حافلة انضمّ فيها إلى اتحاد الكتاب العرب، وراكم رصيداً أدبياً وبحثياً يتجاوز الخمسين كتاباً توزّعت بين الرواية والقصة القصيرة والدراسات التاريخية وأدب الرحلات والتحقيق. انطلقت مسيرته الإبداعية بمجموعته القصصية "قطط أخرى" عام ١٩٩٣، ثم رواية "دفاتر الكتف المائلة" عام ١٩٩٦، لتتوالى بعدها أعماله الروائية التي باتت تُشكّل علامةً فارقةً في مشهد الرواية التاريخية العربية. ومن أبرز رواياته: "موفيو" عام ٢٠١٣، و"مذبحة الفلاسفة" عام ٢٠١٦ التي وصلت إلى القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر)، و"عصافير داروين" عام ٢٠١٨، و"ملك اللصوص: لغائف أيونوس السوري" عام ٢٠٢٢. فضلاً عن إسهاماته البحثية التاريخية الكبرى ومنها "موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين" و"استكشاف الجولان: مغامرون وجواسيس وقساوسة". وما يُميّز تيسير خلف عن كثير من أقرانه من الروائيين العرب أنه يأتي إلى الرواية من باب المؤرّخ الباحث لا من باب الخيال المحض؛ فهو يقضي سنوات في التنقيب في الأرشيفات والوثائق القديمة قبل أن يشرع في الكتابة الإبداعية، مما يمنح نصوصه مصداقية تاريخية نادرة تتعايش مع طاقة سردية أسرة. وقد أشار الناقد فيصل دراج إلى أن الرواية التاريخية العربية في أرقى تجلياتها هي تلك التي «تجعل التاريخ يتكلّم بلسان الإنسان لا بلسان الحوليات» (دراج، ٢٠٠٠، ص ٨٩)، وهو ما يصدق تمام الصدق على تجربة خلف الروائية التي تجعل من الوثيقة التاريخية روحاً لا هيكلًا. وقد أكّد الناقد عبد الله إبراهيم أن الرواية التاريخية العربية المعاصرة تنهض على «إعادة قراءة التاريخ قراءة نقدية تكشف عمّا أسكته الخطاب الرسمي وتُعيد الاعتبار للمهمّشين والمنسيين» (إبراهيم، ٢٠٠٨، ص ١٤٣)، وهو ما يُجسّده خلف في كلّ تجاربه الروائية التي تختار من التاريخ مناطق المظلمة ومحطاته المسكوت عنها، لتُضيء منها أسئلة الحاضر وإشكالياته.

ثانياً: نبذة عن رواية "المسيح الأندلسي" وملخص أحداثها

صدرت رواية "المسيح الأندلسي" لتيسير خلف عن منشورات دار "المتوسط" في إيطاليا عام ٢٠٢٤، لتُشكّل امتداداً طبعياً لمشروعه الروائي القائم على استحضار الحقب التاريخية المنسية وإعادة تشكيلها روائياً. وقد استحقّت الرواية بجدارة وصولها إلى القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) عام ٢٠٢٥، مما يؤكد مكانتها المتميزة في المشهد الروائي العربي المعاصر. تنغرس الرواية في المرحلة الموريسكية من تاريخ الأندلس، تلك الحقبة القاسية التي أعقبت سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ وشهدت إجبار المسلمين واليهود على اعتناق المسيحية أو المغادرة، ثم خضوعهم لمراقبة محاكم التفتيش للتحقق من إخلاصهم للدين الجديد. وتتمحور أحداثها حول شخصية عيسى بن محمد، الموريسكي الذي يحمل في اسمه تناقضاً رمزياً عميقاً بين هويته الإسلامية المخفية وواجهته المسيحية المفروضة، وتتشابك رحلته في البحث عن جذوره وكشف قاتل أمه مع رحلة شخصية فيروزة التي تقع ضحية الخيانة والاختطاف. وتتقلّ الأحداث عبر أزمنة متعددة وأماكن متباعدة تشمل طليطلة ومريد والبندقية وإسطنبول وباريس وأمستردام والقاهرة، في بنية سردية غير خطية تقوم على الاسترجاع والتداخل الزمني، مما يمنح النص طابعاً تشويقياً يُذكر بالرواية البوليسية في توتره وتصاعده. ويُشكّل التاريخ في الرواية خلفية حيّة لا ديكوراً جامداً، إذ تحضر الأحداث الكبرى كمحاكم التفتيش والصراعات الدينية والسياسية في أوروبا القرن السادس عشر إطاراً يتحرّك فيه الأبطال المتخيّلون ويصنعون مصائرهم. وتنهض الرواية على ثيمة مركزية تتمثّل في صراع الهوية واللغة والانتماء؛ إذ يُوظّف خلف ظاهرة "الخمياو" وهي الكتابة بالحرف العربي باللغة الإسبانية التي لجأ إليها الموريسكيون للحفاظ على هويتهم سرّاً، رمزاً للمقاومة الثقافية الصامتة في وجه محاولات المحو والاستئصال. ويرى سعيد يقطين أن «اللغة في الرواية التاريخية ليست وعاءاً للمضمون بل هي جزء من البنية الدلالية التي تُنتج المعنى وتُحدّد الموقف» (يقطين، ١٩٩٧، ص ١١٢)، وهو ما يتجلّى بجلاء في توظيف خلف للغة بوصفها ميدان مقاومة وفضاء للهوية في هذه الرواية. وعلى المستوى الدلالي الأعمق، لا تتفصل الرواية عن الراهن العربي وأسلته الوجودية الكبرى، إذ يستحضر خلف محنة الموريسكيين بوصفها مرآة تعكس واقع الإنسان العربي في مواجهة الاستبداد والقمع الثقافي والتهجير القسري. وفي هذا السياق يُشير إبراهيم الخطيب إلى أن «الرواية التاريخية حين تستدعي الماضي فهي لا تبحث عنه بل تبحث في نفسها عن إجابات لأسئلة الحاضر» (الخطيب، ٢٠٠٣، ص ٥٧)، وهو ما يجعل "المسيح الأندلسي" رواية راهنة في الوقت الذي تبدو فيه تاريخية.

المبحث الأول: جماليات البنية السردية في رواية المسيح الأندلسي

تُشكّل البنية السردية الركيزة الأساسية التي يقوم عليها العمل الروائي، إذ لا يكتفي الروائي المتمكّن بامتلاك المادة الحكائية بل يُحكم بناءها عبر تقنيات سردية متطورة تمنح النص جماليته الخاصة. وقد أكّد حسن بحراوي أن «البنية السردية ليست قالباً شكلياً جاهزاً يُصبّ فيه المحتوى، بل هي

منظومة علاقات متشابكة تُنتج المعنى وتُحدّد الرؤية» (بحراوي، ١٩٩٠، ص ١٨). وقد ذهب سعيد يقطين في السياق ذاته إلى أن النص السردي «كيان لغوي متعدد المستويات، تتشابك فيه الطبقات التعبيرية لتُقضي في نهاية المطاف إلى بنية دلالية كلية» (يقطين، ١٩٩٧، ص ٣٢). وتنهض رواية "المسيح الأندلسي" لتيسير خلف على بنية سردية محكمة تتصافر فيها تقنيات الزمن والمكان والشخصية لتُنتج نصاً روائياً يتجاوز حدود التاريخ إلى فضاءات الإبداع الجمالي الرحيب.

أولاً: بنية الزمن السردية

يُعدّ الزمن السردية من أكثر المستويات تعقيداً في الدراسات البنيوية للرواية، وقد أسس جيرار جينيت لمقولاته الإجرائية الدقيقة حين قسّم علاقة الزمن السردية بزمان القصة إلى ثلاثة محاور كبرى: الترتيب والمدة والتواتر. يقول جينيت: «إن دراسة الزمن السردية هي في جوهرها دراسة العلاقات بين زمن الحكاية وزمن القصة، وهي علاقات لا تكون أبداً علاقة تطابق بسيط بل تحكمها توترات وانزياحات تُنتج في مجملها أسلوب الرواية» (جينيت، ١٩٩٧، ص ٧٧).

١- الاسترجاع التاريخي وتقنية العودة إلى الماضي الأندلسي

يتأسس الاسترجاع — بوصفه مصطلحاً إجرائياً — على ما أسسه جينيت من تمييز بين "الاسترجاع الداخلي" و"الاسترجاع الخارجي"، غير أن عبد الله إبراهيم يُضيف إلى ذلك بُعداً ثقافياً يختصّ بالرواية العربية، إذ يرى أن الاسترجاع في الروايات ذات الموضوع التراثي يأخذ طابعاً وجودياً؛ فهو «ليس مجرد عودة إلى حدث مضى بل هو استرداد لهوية مهذّدة بالاندثار» (إبراهيم، ١٩٩٢، ص ١٤٥). وهو ما ينطبق انطباقاً دقيقاً على تقنية الاسترجاع في "المسيح الأندلسي". يعتمد تيسير خلف في روايته على الاسترجاع التاريخي بوصفه آليةً بنائيةً محوريةً لا مجرد أداة تزيينية، إذ تتطلق الرواية من حاضر الشخصية لتعود بها إلى ماضي الأندلس المفقود في حركة سردية تجعل التاريخ نابضاً لا جامداً. ويتجلّى هذا بوضوح في المشهد الافتتاحي حين يستحضر البطل عيسى بن محمد ماضيه بصوت تأملي عميق، «الآن، وقد عبرت بي السنون إلى الكهولة، أقولها وأنا على يقين: لم تكن حياتي الماضية كلّها إلّا سلسلة متشابكة من المصادفات، لست متيقناً حتّى اللحظة إن كانت مصادفات حمقاء، أم من تدبير عقل حاذق ينظر إليّ باسماً من خلف سدم السموات البعيدة» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٣). يكشف هذا الاسترجاع عن وعي الشخصية بثقل ماضيها وتشابك مساراتها، وهو ما يجعل العودة إلى الماضي الأندلسي فعلاً وجودياً لا مجرد تقنية سردية، تماماً كما يُشير إبراهيم إلى أن الروائي العربي حين يُوظّف التراث «لا يتوجّه إلى الماضي هرباً من الحاضر بل يستنطق الماضي ليُضيء الحاضر ويُجيب عن أسئلته المُعلّقة» (إبراهيم، ١٩٩٢، ص ١٤٩). ويزداد هذا البُعد الاسترجاعي عمقاً حين يتذكّر البطل كلمات أمّه التي زرعت فيه هويته الحقيقية المخفية، «كان يمكنني أن أعيش حياتي كلّها كرجل إسباني كاثوليكي صالح، بلسان قشتالي، يُدعى خيسوس غونثالث، لولا بضع كلمات أوصت بها خالي بابلو بايخو بها حين يرى أنني بثّ أهلاً لذلك. تلك الكلمات هي: أنت عربي مسلم، واسمك عيسى بن محمد» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٣). يحمل هذا النص دلالة الاسترجاع في أعماق صورته؛ إذ لا يعود البطل إلى ماضٍ يتذكّره بل إلى هوية كانت مخبّأة فيه كجمرة تحت الرماد، وحين تكشف عنها كلمات الأم المُوصى بها تشتعل مُشكلةً مسار حياته بأسره.

٢- التوازي الزمني بين عصر الرواية وعصر القارئ

يرى لوسيان غولدمان في إطار البنيوية التكوينية أن العمل الروائي العظيم لا يُقيم علاقة بالتاريخ بالمعنى الوثائقي بل بالمعنى الرؤيوي، إذ «يُجسّد العمل الأدبي رؤية للعالم تتجاوز الزمن التاريخي الذي أُنتج فيه لتُصبح رؤيةً يمكن أن يتعرّف إليها القارئ في أي زمن كان» (غولدمان، ١٩٨٦، ص ٩٨). وهذا التوازي العابر للزمن هو ما يجعل رواية "المسيح الأندلسي" قادرةً على الحديث بلسانين في آنٍ واحد: لسان القرن السادس عشر ولسان الحاضر. لا تقتصر جمالية الزمن في الرواية على الاسترجاع وحده، بل تمتدّ لتشمل التوازي العميق بين زمن الموريسكيين في القرن السادس عشر وزمن القارئ العربي المعاصر. ويتجلّى هذا حين يصف البطل حيرته بين بقائه في غلطة والسفر إلى الجزائر بحثاً عن خيرونيمو، «في مطلع شهر يناير ١٦١٠ مسيحية، الموافق للخامس من شوال ١٠١٨ هجرية، كنتُ أتقلب في فراشي حائراً، بين البقاء في غلطة، بعد أن أضعتُ خمسة شهور فيها وأنا أبحث، من دون جدوى، عن عدوّي اللدود خيرونيمو راميريز، والسفر إلى الجزائر، لعلّي أحظى بفرصة سؤال القرصان البُوني الذي قيل لي إنه اختطفه من مركب جنوبيّ قبالة سواحل رومة، وباعه لرجل من إسطنبول» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٤-١٥). إن هذه الهوية المزدوجة والتشرد بين المدن والبحث عن عدوّ في زمن الاضطهاد تُقيم توازياً صريحاً مع واقع الإنسان العربي الذي يعيش تشرداً مماثلاً بين المنافي. ويتضاعف هذا التوازي حين يجد البطل نفسه مضطراً للكشف عن هويته أمام الغرباء في لحظة خوف واحتراز، «هل أنت من طائفة الأندلسيين؟ عندها أدركتُ خطئي، فقلتُ له بتركية مرتبكة: نعم، أنا أندلسي وأدعى عيسى بن محمد» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٥). في هذه اللحظة البسيطة يتكتفّ التوازي الزمني

كما يصفه غولدمان حين يُشير إلى أن «اللحظة الدرامية الفردية حين تُحمّل دلالتها الكاملة تغدو رمزاً لموقف إنساني كلي» (غولدمان، ١٩٨٦، ص ١٠٣)؛ فالاعتراف بالهوية في زمن الاضطهاد يحمل ثقل كل اعتراف بالانتماء في زمن القهر، ويحوّل السؤال التاريخي البسيط إلى سؤال إنساني خالد.

ثانياً: المكان وجمالياته السردية

يؤسس غاستون باشلار في كتابه الرائد لمفهوم "الطوبوغرافيا الشعرية"، إذ يرى أن الأمكنة التي تسكن الأدب ليست أمكنة جغرافية بالدرجة الأولى بل «أمكنة تُشكّل الوجود الداخلي للإنسان وتُحدّد علاقته بالذاكرة والحلم والهوية» (باشلار، ١٩٨٤، ص ٢٧). وهذه الرؤية الباشلارية هي الأنسب لفهم وظيفة المكان في "المسيح الأندلسي"، حيث لا تُوجد الأندلس بوصفها إحداثيات جغرافية بل بوصفها بنيةً وجدانية تسكن الشخصيات وتقاوم في أعماقها.

١_ الأندلس بوصفها فضاءً تاريخياً وجمالياً

يذهب شكري عزيز ماضي إلى أن الفضاء في الرواية التاريخية «لا يُوجد ليُوصف بل ليُشعر به ويُبكى عليه ويُكتب عنه بوصفه خسارة كبرى»، مُضيفاً أن المكان المفقود في الرواية يتحوّل إلى «قوة دفع درامية تُحرّك الشخصية وتُحدّد خياراتها وتُعرّف هويتها» (ماضي، ١٩٩٣، ص ٢١١). وهذا تحديداً ما تفعله الأندلس في رواية خلف. تحتلّ الأندلس في "المسيح الأندلسي" مكانةً تتجاوز كونها خلفيةً جغرافية لتغدو فضاءً وجدانياً يسكن الشخصية ويُشكّل أعماقها. فهي ليست مكاناً يُوصف بل مكان يُشتهى ويُبكى ويُقاوم دفاعاً عن ذكراه. ولذلك تتسلّل الأندلس إلى النص في لحظات التوتر الأشد، كما في وصف أذان الفجر الذي يُعيد البطل إلى جذوره، «في قَمّة حَيْرَتِي تلك؛ صدح أذان الفجر قوياً رائقاً بمقام أندلسي غُرْنَاتِيّ من «جامع العرب» القريب من بيتي، فوجدتني أرتدي عمامتي الصهباء، وجُبَّتِي التركية الثقيلة ذات الفراء، وأدلف مسرعاً، كأني أُلَبّي نداءً موجّهاً لي وحدي» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٥). يحمل هذا المشهد دلالةً جمالية بالغة تتسق مع ما يُسمّيه باشلار «ظاهرة الصدى»؛ حين يعود المكان عبر صوت أو رائحة أو إيقاع ليُعيد إنتاج نفسه في وعي المتلقّي (باشلار، ١٩٨٤، ص ١٩)؛ فالمقام الأندلسي الغرناطي في أذان الفجر الإسطنبولي يُجسّد حضور الأندلس في المنفى: إنها تُصرخ في الصوت وتُحيي في الذاكرة حين يظنّ الإنسان أنه نسيها. والأندلس هنا ليست ذكرى بل صوت يستدعي ويلبّي.

٢_ توظيف المدن الأندلسية دلاليّاً

يرى فيليب هامون أن المكان في الرواية لا يُقرأ بمعزل عن الشخصيات التي تسكنه وتنتقل عبره، إذ «تكتسب الأمكنة دلالاتها من خلال الكائنات التي تمرّ بها وتحملها ومن خلال الصراعات التي تُجرى على أرضها» (هامون، ١٩٩٠، ص ٦٧). وبهذا المعنى فإن غَلَطة وإسطنبول والبندقية في "المسيح الأندلسي" ليست خلفيات ديكورية بل حلقات صراع هوياتي تُجسّد فيها أزمة الموريسكيين بأبعادها الإنسانية الكاملة. لا تكتفي الرواية بذكر المدن الأندلسية بل تُوظّفها دلاليّاً في سياقات تكشف عن عمق الانتماء المفقود. فغَلَطة وإسطنبول والبندقية ليست محطات سياحية بل محطات لجوء يحمل كلّ منها في طياته ألماً أندلسياً مختلفاً. وتتجلّى هذه الدلالة في مشهد لجوء البطل إلى مسجد العرب في إسطنبول، «كنتُ أُولَ الداخلين إلى الجامع، لم يسبقني أحد سوى المؤذن الغرناطيّ المنشغل بإيقاد آخر مصابيح قاعة الصلاة. صافحته وباركته له الخدمة الجديدة» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٥). في هذا المشهد يلتقي أندلسيان في منفى واحد؛ البطل والمؤذن الغرناطي، وكلاهما يحمل أندلسه في داخله ويُعبّر عنها بطريقته، وهو ما يُجسّد مقولة هامون عن «المكان الجامع» الذي يُحوّل التلاقي الجغرافي إلى تلاقٍ هوياتي يعلو على الزمان (هامون، ١٩٩٠، ص ٧١). وتتضاعف الدلالة المكانية حين يُدرك البطل أن هذا المسجد هو آخر خيط يربطه بهويته الأندلسية في عالم يريده أن ينسى، «لا أخفيكم أن أذان الحلبي وقرآته للقرآن كانا يحزناني ويُدخلاني في نوبة من البكاء، بسبب المقام الحزين، حتّى بلغ بي الأمر أنني صرّحتُ أقضي صلاتي في بيتي، هرباً من الكآبة التي كانت تضغط على صدري يوماً يوم؛ نتيجة لفشلي في العثور على طرف خيط يقودني إلى دُون خيرونيمو» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٥-١٦). يكشف هذا المقطع أن المكان المقدّس — المسجد — لا يُعطي دائماً الطمأنينة بل قد يستدعي الجرح؛ فالمقام الحزين هو صوت الأندلس المفقودة يُصرخ في الذاكرة ويجعل الحاضر لا يُطاق.

ثالثاً: الشخصية التاريخية وتحولاتها الروائية

يُعدّ جورج لوكاتش المرجع النظري الأكثر إنتاجيةً في مسألة الشخصية التاريخية في الرواية، إذ يُفرّق بين الشخصية التاريخية التي تُعيد الرواية إحياءها وتلك التي تخرعها الرواية لتُجسّد روح العصر. يقول لوكاتش: «ليست وظيفة الرواية التاريخية أن تُصوّر أحداثاً تاريخية كبرى بل أن تُجسّد

القوى الاجتماعية والإنسانية التي أنتجت تلك الأحداث، ومن ثم فإن الشخصية المتخيّلة قد تكون أقدر على الكشف عن الحقيقة التاريخية من الشخصية الموثقة» (لوكاتش، ١٩٨١، ص ٤٣).

١_ الشخصيات المستعارة من التاريخ وإعادة صياغتها

ترى نبيلة إبراهيم أن الشخصية التاريخية المُعادَة صياغتها في الرواية «تمرّ بعملية انتقائية حين تنتقل من الوثيقة إلى النص الإبداعي؛ إذ لا يستدعي الروائي الشخصية التاريخية بأكملها بل يستدعي الجانب منها الذي يخدم رؤيته الروائية الكاملة» (إبراهيم، ١٩٧٤، ص ٨٨). وهذا الانتقاء المقصود هو ما يحكم تعامل خلف مع شخصية "خيرونيمو راميريز". يلجأ تيسير خلف إلى إعادة صياغة شخصيات تاريخية حقيقية ودمجها في نسيج روايته بحيث تبدو طبيعية في سياقها الروائي دون أن تفقد ثقلها التاريخي. ويتجلى هذا في شخصية "خيرونيمو راميريز" الراهب الجزويتي الذي يُشكّل المحرّك الدرامي للرواية، فهو عدوّ البطل الذي يمثّل منظومة الاضطهاد الديني، ويُعيّد البطل في رحلة بحث مضنية، «كنتُ ألقُب في فراشي حائراً، بين البقاء في غلّطه، بعد أن أضعتُ خمسة شهور فيها وأنا أبحث، من دون جدوى، عن عدوّي اللود خيرونيمو راميريز» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٤). وتكتسب هذه الشخصية التاريخية المُعادَة صياغتها أبعاداً روائية حين تتحوّل — وفق ما تُشير إليه إبراهيم — من مجرد رجل دين ظالم إلى رمز لكل قوة تسعى إلى محو هوية الآخر وإجباره على التكرار لذاته.

٢_ الشخصيات المتخيّلة وعلاقتها بالسياق التاريخي

يرى باختين أن ما يُميّز الرواية عن سائر الأجناس الأدبية هو قدرتها على استيعاب أصوات متعددة لا صوت واحد، وأن الشخصية المتخيّلة في الرواية التاريخية تُمثّل الصوت الذي أسكنه التاريخ الرسمي؛ «إنها الصوت الذي لم تُدَوّن الوثيقة لأنه صوت الفرد في مواجهة قوى التاريخ الكبرى» (باختين، ١٩٨٧، ص ٩٥). وهذا البُعد الباختيني هو ما يُضفي على الشخصيات المتخيّلة في "المسيح الأندلسي" ثقلها الإنساني الفائق. يبني خلف إلى جانب الشخصيات التاريخية شخصيات متخيّلة تحمل الحمولة الإنسانية للرواية وتُجسّد آلام الموريسكيين بأكثر مما تستطيع الوثيقة التاريخية. ومن أبرز هذه الشخصيات المتخيّلة "الأندلسي الغريب" الذي يظهر في إسطنبول ليقيم توتراً سردياً يُغذي الحكمة ويُعمّق دلالة الهوية المفقودة، «صحيح أن البدر بن الحكم لم يكن يعرفه، ولكنه، وبسبب عمله الطويل في البُنْدُقيّة، كانت أخبار الأندلسيين تتجمّع عنده من الجهات الأربع... هل نسيب ذلك الأندلسي الغريب، ذا الصوت العميق الذي صادفته في مخزن ابن الحكم، قرب ميناء البُنْدُقيّة الكبير؟» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٥). وحين يلتقي البطل بهذا الأندلسي الغريب مباشرة ويُجري معه حواراً يكشف فيه شيئاً من هويته المشتركة، يتجلى البُعد الجمالي الذي يُعبّر عنه باختين بمفهوم "الحوارية": «نعم، أنا أندلسي وأدعى عيسى بن محمّد. أردف التركي: - وهل تجيد الكتابة العربية بخطكم الجميل؟ - نعم. عندها؛ بشّ وقال متشجّعاً: - اسمي رمضان، وينادونني حاجي رمضان. نحن نحبكم، طائفة الأندلس، لأنكم قوم مولانا ابن عربي» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٦-١٧). يكشف هذا الحوار البسيط عن وظيفة الشخصية المتخيّلة في الرواية التاريخية؛ فهي — كما يُؤكّد باختين — لا تُوثّق حدثاً بل تُجسّد علاقة إنسانية، وتُظهر كيف أن الهوية الأندلسية المهجرة لم تكن مجرد هوية سياسية بل هوية روحية وفكرية يحفظها الآخرون حتى حين ينساها أصحابها. فابن عربي هنا جسر يصل بين موريسكي مضطهد وتركي في إسطنبول، وهو ما لا تستطيع الوثيقة التاريخية أن تُعبّر عنه بما تستطيعه الرواية.

المبحث الثاني: آليات توظيف التاريخ بين التوثيق والتخييل

يُمثّل التوتر بين التوثيق والتخييل أحد أكثر الإشكاليات حضوراً في النقد الروائي المعاصر، ولا سيما حين يكون موضوع الرواية التاريخ بما يحمله من سلطة الوقائع وثقل الشهادة. فالروائي الذي يقتحم الفضاء التاريخي لا يجد نفسه أمام مادة خام قابلة للتشكيل وحسب، بل أمام نظام معرفي راسخ له منطق وأدواته ومرجعياته، وهو ما يجعل مهمّة التخييل مهمّة مزدوجة: الاستفادة من الوثيقة التاريخية من دون الاستسلام لها، والتجاوز عنها من دون تزويرها. وقد عبّر بول ريكور عن هذه الإشكالية بقوله: «إن الرواية حين تقترب من التاريخ لا تتنافس معه على امتلاك الحقيقة بل تفتح فيه نوافذ الممكن، وتُكمل ما عجز التاريخ عن إكماله: الفهم من الداخل» (ريكور، ١٩٩١، ص ١٧٨). ورواية "المسيح الأندلسي" لتيسير خلف خير نموذج لهذه العلاقة الجدلية المعقّدة بين الوثيقة والتخييل، إذ يُدع الروائي في أن يجعل التاريخ نسيجاً يُضيء وليس قيداً يُقيّد.

أولاً: الرواية التاريخية والسرد التخيلي — الإطار النظري

يُشكّل هايدن وايت المرجع النظري الأساسي حين يتعلّق الأمر بالعلاقة بين الخطاب التاريخي والخطاب السرد، إذ يرى أن التاريخ في صورته المكتوبة لا يختلف جوهرياً عن السرد الأدبي من حيث بنيته وأساليبه الإقناعية. يقول وايت: «إن المؤرّخ حين يُحكّي التاريخ لا يُقرّر الوقائع بل يُؤوّلها، ومن ثم فإن الخطاب التاريخي خطاب تخيلي بامتياز حتى وهو يدّعي الموضوعية، والفارق بينه وبين الرواية فارق في الدرجة لا في الجوهر» (وايت، ٢٠١١، ص ٣٥). وهذه الرؤية تفتح الباب واسعاً أمام الروائي ليدخل الفضاء التاريخي دون أن يشعر بأنه مُقتحم حدوداً محرّمة، بل كمُكمّل

ضروري لعمل المؤرخ لا كُمُزاحم له. وقد سعى النقد الأدبي منذ أواسط القرن العشرين إلى تأطير مفهوم الرواية التاريخية وتمييزه من الأنواع المجاورة. فالرواية التاريخية — كما يُفرّق لوكاتش بين أشكالها — ليست رواية تجري أحداثها في زمن ماضٍ فحسب، بل هي رواية «تُكشف فيها القوى التاريخية الكبرى من خلال مصائر أفراد يعيشون التناقضات العميقة لعصرهم ويُجسّدونها في خياراتهم الشخصية» (لوكاتش، ١٩٨١، ص ٥٢). وفي ضوء هذا التعريف تنتمي «المسيح الأندلسي» إلى أرقى أشكال الرواية التاريخية، لأنها لا تكتفي بتصوير مرحلة الطرد الموريسكي من الخارج بل تنزل إلى أعماق الذات الفردية المضطّدة لتُجسّد الحدث التاريخي الكبير من الداخل الإنساني الجريح. وفي السياق العربي تحديداً، يُشير محمد القاضي إلى أن الرواية التاريخية العربية المعاصرة قد تجاوزت مرحلة الاستلهم الساذج للتاريخ لتصل إلى ما يُسمّيه «الحوار النقدي مع التاريخ»؛ وهو حوار «لا يتقبّل الرواية الكبرى للتاريخ بوصفها حقيقة مطلقة بل يُساءل ما أهمل منها ويُصوّت لمن لم يُصوّت لهم في الوثيقة الرسمية» (القاضي، ٢٠٠٨، ص ١١٩). وهذا التوصيف ينطبق انطباقاً دقيقاً على ما يفعله تيسير خلف حين يجعل من الموريسكيين المهجّرين — وهم هامش التاريخ الأوروبي — مركز السرد وبطولته. وتجدر الإشارة إلى أن الرواية التاريخية العربية عرفت طفرة نوعية في نهاية القرن العشرين وما تلاه، إذ انتقلت من النمط السلفي التمجدي الذي يُسبغ على التاريخ هالة الكمال، إلى نمط أكثر نضجاً يُعّين التاريخ بعين ناقدة تبحث في ثناياه عن جذور أسئلة الحاضر. ولذلك كانت رواية «المسيح الأندلسي» امتداداً لهذا النضج وذرّة من ذراه؛ فتيسير خلف لا يبكي الأندلس بكاء الرثاء العاجز بل يُعيد قراءتها بكاء الفهم الباحث عن إجابة.

ثانياً: مستويات التاريخ في الرواية

تُميّز ليندا هتشبون في إطار نظريتها عن «الميتافيكشن التاريخية» بين مستويين رئيسيين من الحضور التاريخي في الرواية: المستوى الماكروتاريخي الذي تنتمي إليه الأحداث السياسية والعسكرية الكبرى، والمستوى الميكروتاريخي الذي تنتمي إليه الحياة اليومية وتجارب الأفراد والجماعات المهمّشة. وترى هتشبون أن ما يُميّز الرواية ما بعد الحداثيّة عن سابقتها هو اهتمامها بالمستوى الثاني على حساب الأول، إذ «تصرف إلى ما غفل عنه التاريخ الرسمي وتجعل منه نصّها الحقيقي» (هتشبون، ٢٠١٣، ص ٨٩). ورواية «المسيح الأندلسي» تُوظّف المستويين معاً في توازن فني دقيق يجعلها تُمسك بخيط التاريخ الكبير من دون أن تُغفل خيط الإنسان الصغير.

أ_ التاريخ الكبير: الأحداث السياسية وسقوط الأندلس

التاريخ الكبير في «المسيح الأندلسي» هو تاريخ النهاية الأندلسية بكل أبعادها السياسية والدينية والاجتماعية: سقوط غرناطة، وصدور قرارات التهجير القسري، واضطرار الموريسكيين إلى إخفاء هويّتهم أو الرحيل قسراً. وقد اعتمد تيسير خلف في توثيق هذه الأحداث الكبرى على معطيات تاريخية موثوقة، غير أنه أحسن تحويلها من مادة باردة في كتب التاريخ إلى لحم حيّ ينبض في جسد الرواية. ويتجلّى حضور التاريخ الكبير في الرواية حين يُشير البطل إلى السياق السياسي الذي يُحكم قبضته على حياته. «في مطلع شهر يناير ١٦١٠ مسيحية، الموافق للخامس من شوال ١٠١٨ هجرية، كنتُ أُنقلب في فراشي حائراً، بين البقاء في غلّطه، بعد أن أضعتُ خمسة شهور فيها وأنا أبحث، من دون جدوى، عن عدوّي اللدود خيرونيمو راميريز» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٤-١٥). إن هذا التاريخ المزدوج بالتقويمين المسيحي والهجري ليس ترفاً توثيقياً بل هو كناية سرديّة عن ازدواجية الهوية التي يعيشها الموريسكيون؛ فهم يحيون في زمنين وبهويّتين، ويتقلّبون بين تقيمين كما يتقلّبون بين اسمين ودينين وعالمين. والتاريخ الكبير هنا — تاريخ التهجير والاضطهاد — لا يُقدّم بوصفه خلفيّة بل بوصفه الجلد الذي يلفّ كل لحظة يعيشها البطل. ويحضر التاريخ الكبير أيضاً في صورة الأعداء الأيديولوجيين الذين يُجسّدون منظومة الاضطهاد الديني المنهجي؛ فشخصية «خيرونيمو راميريز» الراهب الجزويتي ليست مجرد عدوّ شخصي للبطل بل هي تجسيد روائي لسلطة محاكم التفتيش التي كانت تُمثّل أشرس أدوات الاضطهاد في تلك الحقبة. وقد وثّق المؤرخون هذه الحقبة بالتفصيل، إذ يُشير بالنّسبة إلى أن «محاكم التفتيش الإسبانية في القرن السادس عشر بلغت من القسوة والتنظيم حدّاً جعلها تُشكّل منظومة اضطهاد ممنهجة لا سابق لها في التاريخ الأوروبي» (بالنثيا، ١٩٥٥، ص ٣١٢). وحين يُحوّل خلف هذه المنظومة التاريخية الكبرى إلى شخصية روائية واحدة تلاحق البطل عبر البحار والمدن، يكون قد أنجز أرقى عمليات التخيل التاريخي: تحويل البنية إلى وجه إنساني.

ب_ التاريخ الصغير: يوميات الناس والحياة الاجتماعية

يُمثّل كارلو جينزبورغ رائد المدرسة الميكروتاريخية التي تتحاز إلى التاريخ الصغير؛ تاريخ الأفراد العاديين والحياة اليومية والتفاصيل التي تغفل عنها الروايات الكبرى. يقول جينزبورغ: «إن القراءة الدقيقة لتاريخ فرد واحد هامش قد تكشف لنا عن بنية اجتماعية بأكملها بما لا تستطيع إكشافه الوثائق الرسمية، لأن الهامش يحتفظ بما تُسقطه المركز» (جينزبورغ، ٢٠٠٤، ص ١٨). وهذه المقولة هي التي تجعل التاريخ الصغير في رواية «المسيح الأندلسي» ليس ملحفاً بالتاريخ الكبير بل موازياً له في الأهمية وربما متجاوزاً له في العمق. التاريخ الصغير في «المسيح الأندلسي» هو تاريخ التفاصيل

الإنسانية التي نسيها المؤرخون: كيف كان الموريسكيون يتعرّفون إلى بعضهم في مدن الغرب؟ وكيف كانوا يحفظون هويّتهم وهم يُخفونها؟ وكيف كانوا يصلّون وكيف كانوا ييكون؟ وهذه التفاصيل هي التي تمنح الرواية نبضها الحقيقي وتحوّل الحدث التاريخي من معلومة إلى تجربة. ويتجلّى هذا التاريخ الصغير بجلاء في مشهد التعارف داخل المسجد بين البطل والمؤدّن الغرناطي. «كنتُ أوّل الداخلين إلى الجامع، لم يسبقني أحد سوى المؤدّن الغرناطيّ المنشغل بإيقاد آخر مصابيح قاعة الصلاة. صافحته وباركته له الخدمة الجديدة» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٥). هذه المصافحة البسيطة بين أندلسيين في مسجد إسطنبولي هي التاريخ الذي لا تجده في كتب المؤرخين، لكنه الأكثر صدقاً وإنسانيةً من كل وثيقة رسمية. فهو يُجسّد كيف كانت جاليات المنفى تُعيد بناء روابطها في الغرب من خلال لقطات يومية صغيرة كإيقاد المصابيح والمصافحة وتبادل البركة. وهو بالمعنى الجينزبورغي بالضبط: كشف البنية الاجتماعية من خلال التفاصيل الفردية. ويتضاعف هذا التاريخ الصغير في مشهد الحوار مع حاجي رمضان، حيث تُروى يوميات الأندلسيين المهجّرين من خلال الطريقة التي ينظر بها الآخرون إليهم. «اسمي رمضان، وينادوني حاجي رمضان. نحن نحكم، طائفة الأندلس، لأنكم قوم مولانا ابن عربي» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٦-١٧). في هذه الجملة القصيرة تاريخ اجتماعي كامل: تاريخ كيف كان الموريسكيون يُعرّفون في المجتمعات التي استقبلتهم، وما الذي كان يميّزهم في نظر الآخرين، وكيف كانت ذاكرة ابن عربي تمنحهم شرفاً يتجاوز شرف اللجوء إلى شرف الانتماء الفكري والروحي

ثالثاً: آليات تخييل التاريخ

يرى بول ريكور أن التخييل التاريخي لا يعني تزوير التاريخ بل يعني «السكن فيه بصورة تكمل ما نقص منه وتُحيي ما مات فيه»، مُشيراً إلى أن الرواية التاريخية الكبرى هي التي تُترك أن «ما بين الفراغات التاريخية من مواقف وأحاسيس وحوارات لم تُدوّن هو مادة السرد الروائي الأصيل» (ريكور، ٢٠٠٦، ص ٢٤١). وتتطلق «المسيح الأندلسي» من هذا الوعي الريكوري لتقيم علاقة خصبة مع التاريخ قائمة على التكامل لا التنافس. أـ ملء الفراغات التاريخية بالخيال السردى

يُطوّر ولغناغ إيزر مفهوم «الفراغات النصية» ليشير إلى المساحات في النص التي يُدعى القارئ إلى ملئها بخياله وتجربته. غير أن هذا المفهوم ينطبق بصورة مضاعفة على الرواية التاريخية، إذ لا يكتفي فيها المؤلف بترك فراغات للقارئ بل يملأ هو نفسه الفراغات التي تركها التاريخ. يقول إيزر. «الفراغات في النص ليست نقائص بل مواضع إنتاج المعنى، وهي الأمكنة التي تشتغل فيها العلاقة بين النص والقارئ» (إيزر، ١٩٩٤، ص ١٣٦). وحين يُطبق خلف هذا المبدأ على التاريخ فإنه يتحوّل إلى قارئ نقدي للوثيقة التاريخية يُبادر إلى ملء ما سكت عنه المؤرخ بما يُجيب عن أسئلة الروح لا عن أسئلة الحدث وحده. تُمثّل آلية ملء الفراغات التاريخية أبرز ما يميّز «المسيح الأندلسي» من حيث علاقتها بالتاريخ. فالتاريخ الموثّق يُخبرنا أن الموريسكيين هُجّروا قسراً، لكنه لا يُخبرنا كيف كانوا يحيون حياتهم اليومية في المنافي، وكيف كانوا يُعيدون بناء علاقاتهم الاجتماعية، وكيف كانت الهوية المخفية تُطلّ برأسها في لحظات الصدق. وهذا بالضبط ما تملؤه الرواية. ومن أبرز نماذج هذا الملء السردى للفراغ التاريخي مشهد الكشف عن الهوية السرية للبطل. «كان يمكنني أن أعيش حياتي كلّها كرجل إسباني كاثوليكي صالح، بلسان قشتالي، يُدعى خيسوس غونثالث، لولا بضع كلمات أوصت بها خالي بابلو بايخو بها حين يرى أنني بئ أهلاً لذلك. تلك الكلمات هي: أنت عربي مسلم، واسمك عيسى بن محمد» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٣). التاريخ يُخبرنا عن ظاهرة المورانوس والموريسكيين الذين أخفوا هويّتهم تحت أسماء مسيحية، لكنه لا يُخبرنا عن اللحظة الداخلية الحاسمة التي كان يكتشف فيها الفرد هويّته الحقيقية المخفية عنه. هذه اللحظة — التي تجري بين كلمات أم ووصية خال ووعي ابن — هي الفراغ التاريخي الذي يملؤه الروائي. وهي أكثر صدقاً في جوهرها من أي وثيقة، لأنها تُجيب عن السؤال الذي لا تُجيب عنه الوثيقة: كيف كان يشعر إنسان حين يكتشف أنه كان يعيش حياة شخص آخر؟ ويتواصل هذا الملء السردى في مشهد التعرّف المزدوج بين البطل وحاجي رمضان حين يكشف الأخير أن معرفته بالأندلسيين تسبق معرفته بالبطل شخصياً. «صحيح أن البدر بن الحكم لم يكن يعرفه، ولكنه، وبسبب عمله الطويل في البُنْدُقيّة، كانت أخبار الأندلسيين تتجمّع عنده من الجهات الأربع» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٥). هذه الجملة تملأ فراغاً تاريخياً مهماً: كيف كانت شبكات التواصل بين المجتمعات الأندلسية المنقرّقة في المنافي تعمل؟ التاريخ يُسجّل وجود هذه الجاليات لكنه نادراً ما يُصوّر الشبكات غير الرسمية التي كانت تجمعها. والرواية هنا تملأ هذا الفراغ بصورة الرجل الذي يجمع الأخبار من الجهات الأربع ويُشكّل ذاكرة جماعية حيّة للجالية المنفية.

بـ الحوار بين الروائي والمؤرخ داخل النص

يُميّز جاك لوغوف بين «التاريخ» بوصفه خطاباً نقدياً أكاديمياً و«الذاكرة» بوصفها خطاباً حياً يسكن الجماعات ويُشكّل هويّتها. ويرى أن الرواية — حين تُعالج الماضي — تنتمي في الغالب إلى الذاكرة لا إلى التاريخ، وأن هذا الانتماء هو ما يمنحها قوّتها الخاصة: «الذاكرة تُنتج الهوية والتاريخ

يُنتج المعرفة، وكلاهما ضروري لكن لا ينبغي الخلط بينهما» (لوعوف، ١٩٩٦، ص ٩٧). وهذا التمييز هو المفتاح الذي يُمكن من فهم الطريقة التي يُحاور بها تيسير خلف المؤرخ داخل نصّه. يُقيم "المسيح الأندلسي" حواراً داخلياً صريحاً مع الوعي التاريخي من خلال آليات متعددة يمكن رصدها على مستويين: مستوى التأريخ الدقيق، ومستوى التساؤل الفلسفي عن طبيعة ما جرى. على مستوى التأريخ الدقيق، يحرص البطل الراوي على تحديد التواريخ بدقة المؤرخ. «في مطلع شهر يناير ١٦١٠ مسيحية، الموافق للخامس من شوال ١٠١٨ هجرية» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٤). هذا الإسناد المزدوج للتاريخ ليس مجرد دقة توثيقية بل هو إعلان ضمني بأن الراوي يعي الفجوة بين المنظومتين الزنيتين ويسجلها بعين المؤرخ. غير أن الراوي يتجاوز دور المؤرخ الفوري حين يرفع التأمل الفلسفي فوق الوقائع ليتساءل عن معنى ما جرى. «الآن، وقد عبرت بي السنون إلى الكهولة، أقولها وأنا على يقين: لم تكن حياتي الماضية كلّها إلا سلسلة متشابكة من المصادفات، لست متيقناً حتى اللحظة إن كانت مصادفات حمقاء، أم من تدبير عقل حاذق ينظر إليّ باسماء من خلف سدم السموات البعيدة» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٣). في هذا التساؤل المعلق يطوي الروائي المؤرخ: فالمؤرخ يُقرّر والروائي يُساءل، والمؤرخ يُغلق والروائي يفتح. وهو ما يُجسّد بصورة دقيقة ما يصفه لوعوف بالفرق بين خطاب المعرفة التاريخية وخطاب الذاكرة الحية؛ فالبطل لا يريد أن يؤرخ لحياته بل أن يفهمها، وهذه الرغبة في الفهم — لا في التوثيق هي جوهر السرد الروائي. ويصل هذا الحوار بين الروائي والمؤرخ ذروته في المشهد الذي يُعلن فيه البطل عن هويته الكاملة لأول مرة. «هل أنت من طائفة الأندلسيين؟ عندها أدركت خطئي، فقلتُ له بتركية مرتبكة: نعم، أنا أندلسي وأدعى عيسى بن محمد» (خلف، ٢٠٢٤، ص ١٥). هذا الاعتراف بالهوية — وهو فعل يؤدي بأمثاله في زمن محاكم التفتيش إلى السجن أو الموت — هو الجواب الروائي على السؤال الذي يعجز التاريخ عن الإجابة عنه: ماذا كان يشعر إنسان حين يجرؤ في لحظة ارتباك على أن يقول الحقيقة؟ التاريخ يُسجل الحدث، والرواية تُحيي اللحظة. وهذا هو جوهر الحوار الأبدى بين الروائي والمؤرخ.

النتائج:

توصل البحث إلى جملة من النتائج هي:

أولاً: وظّف تيسير خلف الاسترجاع التاريخي بوصفه آليةً بنائيةً محورية، جعلت العودة إلى الماضي الأندلسي فعلاً وجودياً يربط الهوية المهددة بالحاضر المضطهد، لا مجرد تقنية سردية.

ثانياً: تجاوزت الأندلس في الرواية كونها فضاء جغرافياً لتغدو بنيةً وجدانية تسكن الشخصيات، إذ وظّف الكاتب المدن والأمكنة دلاليّاً بوصفها حلقات صراع هوياتي تُجسّد فقدان المقاومة معاً.

ثالثاً: أعاد خلف صياغة الشخصيات التاريخية بانتقائية مقصودة تخدم رؤيته الروائية، فيما حملت الشخصيات المتخيّلة الحمولة الإنسانية الأعمق التي عجزت عنها الوثيقة الرسمية.

رابعاً: قدّمت الرواية نموذجاً ناضجاً للرواية التاريخية العربية الحديثة، يقوم على التوتر الخلاق بين أمانة الوثيقة وحرية الخيال، ويجعل التاريخ الأندلسي مرآة نقدية تعكس أسئلة الهوية والانتماء في الواقع العربي الراهن.

قائمة المصادر

١. إبراهيم، عبد الله. (١٩٩٢). *الرواية العربية والمرجعية التراثية: بنية الخطاب الروائي في ضوء التراث السردى*. المركز الثقافي العربي. بيروت، لبنان.
٢. إبراهيم، عبد الله. (٢٠٠٨). *السردية العربية الحديثة: تحولات الخطاب الروائي من التأسيس إلى التجريب*. المركز الثقافي العربي. بيروت، لبنان.
٣. إبراهيم، نبيلة. (١٩٧٤). *فن القص بين النظرية والتطبيق*. مكتبة غريب. القاهرة، مصر.
٤. إيزر، ولفغانغ. (١٩٩٤). *فعل القراءة: نظرية جمالية التجاوب في الأدب*. (ترجمة: حميد لحداني وجلال الكدية). منشورات مكتبة المناهل. فاس، المغرب.
٥. باختين، ميخائيل. (١٩٨٧). *الخطاب الروائي*. (ترجمة: محمد برادة). دار الفكر للدراسات والنشر. القاهرة، مصر.
٦. باشلار، غاستون. (١٩٨٤). *جماليات المكان*. (ترجمة: غالب هلسا). المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. بيروت، لبنان.
٧. بالنشأ، أنجيل جنثال. (١٩٥٥). *تاريخ الفكر الأندلسي*. (ترجمة: حسين مؤنس). مكتبة النهضة المصرية. القاهرة، مصر.
٨. بحراري، حسن. (١٩٩٠). *بنية الشكل الروائي*. المركز الثقافي العربي. بيروت، لبنان.

٩. جينزبورغ، كارلو. (٢٠٠٤). *الجبن والدود: عالم طاحونة من القرن السادس عشر*. (ترجمة: مصطفى حسيبة). المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة، مصر.
١٠. جينيت، جيرار. (١٩٩٧). *خطاب الحكاية: بحث في المنهج*. (ترجمة: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي). المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة، مصر.
١١. خلف، تيسير. (٢٠٢٤). *المسيح الأندلسي*. منشورات المتوسط. إيطاليا.
١٢. الخطيب، إبراهيم. (٢٠٠٣). *الرواية التاريخية العربية: بين التوثيق والتخييل*. دار الفكر العربي. القاهرة، مصر.
١٣. دراج، فيصل. (٢٠٠٠). *نظرية الرواية والرواية العربية*. المركز الثقافي العربي. بيروت، لبنان.
١٤. ريكور، بول. (١٩٩١). *الوجود والزمان والسرد*. (ترجمة: سعيد الغانمي). المركز الثقافي العربي. بيروت، لبنان.
١٥. ريكور، بول. (٢٠٠٦). *الزمان والسرد: الجزء الثالث (الزمان المروي)*. (ترجمة: سعيد الغانمي). دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت، لبنان.
١٦. غولدمان، لوسيان. (١٩٨٦). *البنوية التكوينية والنقد الأدبي*. (ترجمة: محمد برادة). دار الآداب. بيروت، لبنان.
١٧. القاضي، محمد. (٢٠٠٨). *الرواية التاريخية في الأدب العربي*. دار الغرب الإسلامي. بيروت، لبنان.
١٨. لوغوف، جاك. (١٩٩٦). *التاريخ والذاكرة*. (ترجمة: محمد الطاهر المنصوري). دار المنتخب العربي. بيروت، لبنان.
١٩. لوكاتش، جورج. (١٩٨١). *الرواية التاريخية*. (ترجمة: صالح جواد طعمة). دار الرشيد للنشر. بغداد، العراق.
٢٠. ماضي، شكري عزيز. (١٩٩٣). *في نظرية الأدب*. دار المنتخب العربي. بيروت، لبنان.
٢١. هامون، فيليب. (١٩٩٠). *سيمولوجية الشخصيات الروائية*. (ترجمة: سعيد بنكراد). دار الكلام. الرباط، المغرب.
٢٢. هتشون، ليندا. (٢٠١٣). *شعرية ما بعد الحداثة: التاريخ، النظرية، الخيال*. (ترجمة: حيدر حاج إسماعيل). المنظمة العربية للترجمة. بيروت، لبنان.
٢٣. وايت، هايدن. (٢٠١١). *الميتاتاريخ: الخيال التاريخي في أوروبا القرن التاسع عشر*. (ترجمة: محمد عصفور). المنظمة العربية للترجمة. بيروت، لبنان.
٢٤. يقطين، سعيد. (١٩٩٧). *الرواية والتراث السردي: من أجل وعي جديد بالتراث*. المركز الثقافي العربي. بيروت، لبنان.